بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم

دكتور سعيد إسماعيل علي

أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

تغلب على صور التَّقديم لكتب الآخرين أشكال من المجاملة ؛ على أساس أنَّ المؤلف ينظر إلى من يقدِّمه وكأنَّه يَشْرُف به ويعتزُّ ، مما يدفع المقدِّم إلى أن يقابل هذا بكثير من الثِّقة وحسن الظَّن ، ووفرة الأمل بأن يكون الكتاب المقدّم له مجرَّد خطوة تتلوها خُطُوات ـ وربما سبقتها ـ من الإفادات المعرفيَّة والإسهامات التثقيفيَّة .

ولا أخفي على القارئ أن وجود مثل هذا التصوُّر العام عن طبيعة التقديم من آخرين يُضايقني الآن ـ وأنا أكتب التَّقديم الحالي ـ بعض الشيء ؛ لأنه يمكن أن يلقي بعضَ شبهة مجاملةٍ على كلماتي الحالية ، بينما هي في الواقع والحقيقة بعضٌ من كل ، وهي صادرة عن إيمان حقيقي بكلِّ كلمة فيها ، وثقة بغير حدود بكلِّ فكرة تقوم عليها ، ولعلي ـ على غير العادة ـ راغب في أن أقدم المبرِّرات لحديثي هذا .

فالسيدة الفاضلة ناهد كان لقائي الأوّل بها منذ عدَّة سنوات لا أذكرها مع الأسف ، بدعوة من العظيم حقًا الدكتور جمال الدين عطية في مسجد من مساجد مصر الجديدة ، وفي محفل دعوة إسلامية ، ووسط مجموعة من المسلمات الفُضليات ؛ لتحقيق مقصد شرعي وتربوي وإنساني ، ومن هنا تجيء الخبرة الأولى مغللة بعطر الأخوة الدينية ، ومكسوّة بالأخلاق الفاضلة ، وموجّهة نحو التطوع الإنساني النبيل .

ومن ناحية أخرى فالسّيّدة الفاضلة ناهد تأسّست علميًّا تأسيسًا يبعث على الثّقة والتقدير ، ولم لا ؟ وهي خريجة كليّة الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، تلك الكليّة التي انفردت عن جميع كليات الجامعات المصرية بمحافظتها على النّشأة السّويّة التي باعدت بينها وبين العشوائيّة في التّكوين ، والانتشار السرطاني ، بحجّة توسيع دائرة الإتاحة لفرص التعليم بغير ضمان توافر الأسس الراسخة الضامنة لتقديم تعليم متميز ، ومن هنا جاء تميز هذه الكلية ، وجاءت سمعتها الطّيّبة ؛ بحيث إنّه عندما نعلم أن هذا وذاك من خريجيها سلّمناه ثقتنا ومنحناه تقديرنا .

وهي كانت وما زالت حريصة على التزوّد بأسس راسخات في المعرفة الدينية ، وخاصة نقطة الانطلاق الأولى ، ألا وهي القرآن الكريم ـ حفظًا وقراءة ـ وفقًا للأصول المتّفق عليها بين المتخصّصين ، وفهمًا وتدريسًا ؛ حيث إن توافر هذا النّبع الصافي الرئيسي لدى إنسان يضمن ـ مع توافر حسن النية وصدق العزم ، وهو ما توافر لدى أختنا الفاضلة ـ أن يجعل طريق التعلّم الديني سويًّا مبهرًا ، وبالتالي ييسر إلى حد كبير أن يخرج من المتعلم ما هو ممتع ومفيد لكلّ من يقرأ له ويستمع .

تبقى نقطة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لي ، وهي ـ ويا للغرابة ـ تبدو متناقضة مع المقولة الشهيرة : « فاقد الشّيء لا يعطيه » ، ذلك أن أبرز دواعي إعجابي الشّديد بالكتاب الحالي هو أمر ينقصني بالفعل إلا فيما ندر .

فنحن إذ منّ الله علينا بنعمة التخصّص التربوي الأكاديمي خضعنا لأصول ممارسات المهنة بحثًا وتدريسًا ، ومن ثَمّ غلَب علينا ـ وخاصّة في مجالنا المسمّى أصل التربية ـ التّنظير والتفلسف والتقعيد ، مما يناسب قاعات التدريس في الجامعات والجمعيات العلميّة ، والمؤتمرات المتخصّصة ، وتنفتح له صفحات الكتب الأكاديمية والبحوث التربوية والنفسية ، وهذا وذاك مما يتطلبه من يعدون لمهنة التدريس على المستوى الجامعي بصفة خاصة .

لكن من قال إن أمر التنشئة والتكوين والتربية قاصر على المتخصِّصين في ممارسة مهنة التدريس؟ صحيح أن هذا هو الغالب على عمل آلاف من خريجي كليات التربية وأعضاء هيئة التدريس فيها ، لكن يظلّ التساؤل قائمًا .

إن الأمهات والآباء من تخصصات أخرى مختلفة ممن حصلن على قدر كثر أو قلّ من التعليم ، وكذلك ممن حرمن من نعمة التعلم من عوام المجتمع ، وكذلك من يقومون بواجب الدعوة في المساجد ، وأيضًا من يقومون بمهمة الإعلام . . . كل هؤلاء يساهمون بشكل أو بآخر في عملية التَّنشئة والتكوين ، مع اختلاف يمكن أن يكون في المجال ، وتباين في الطرق ، وتنوع في الأهداف .

وهذا يعني أن أسلوبنا المعتاد في كليات التربية ليس مما يمكن وصفه بالصلاحية لكلِّ الفئات ، وفي مختلف الظروف .

ومن هنا تأتي قيمة جهد ناهد ، إنها تتحدَّث باعتبارها مواطنة عادية تخاطب عموم الناس باللغة التي يتعاملون بها في حياتهم ، وتستند إلى اهتماماتهم هم ومشكلاتهم هم ، لا ما يشغل اهتمامات فلاسفة التربية ومفكريها ، وإن لم تناقضهم في أساسيات المهنة وثوابتها ، وأصول العملية التربوية .

والأخت ناهد إذ تتصدَّى لعالم تربية الأطفال إنما تقتحم عالم الأسس التي يقوم عليها بناء الشخصية الإنسانية ، إلى الدرجة التي تسوغ لكثيرين أن يؤكِّدوا أن كلَّ ما يحدث ويمر به الإنسان في فترة طفولته هو الذي يرسم معالم شخصيته شابًّا وكهلاً ، وبالتالي فإن صلح الأساس ضمنا إلى حد كبير سلامة البنيان وصحة الخطوات على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم الله عزّ وجلّ ، وليس صراط الذين ضلوا عن جادة الحقِّ .

والقارئ الذي يكون سعيد الحظ فيقرأ الكتاب الحالي لا بد أن يقع أسيرًا ـ مثلما وقعت ـ في سحر رشاقة العبارات ، ورائحة الإيمان التي تفوح من سطورها وكلماتها ، ونبل المقاصد التي تتغياها في كلِّ ما كتبت ، وعمق النظر والتأمل ، والخبرة المدهشة بما يعاني منه الآباء والأمهات في تربية فلذات أكبادهم ،

ولا يملك إلا أن يرفع يده إلى المولى عزَّ وجلّ أن يبث العزم في قلب ناهد ، لتواصل المسيرة على هذا الطريق ، فقد أجادت ، وقد أحسنت .

إنني أكاد أقسم بالله ـ وإن لم يطلب أحد مني ذلك ـ أنني وأنا المنغمس في عالم التربية الأكاديمية عبر خمسين عامًا شعرت بشيء من الغيرة من هذه المهارة التي أظهرتها ناهد في القدرة على التّبسيط غير المخل ، والنُّزول إلى مستوى الإنسان العادي دون تنازل عن الأصول العلمية ، وتلك مهارة عصية علينا نحن الذين نرفع ألوية المنهج العلمي الصارم واللغة الأكاديمية الجافة ، والمصطلحات والمفاهيم الباردة ، فهل بالغت عندما قلت ، وسوف أظل قائلاً إن ناهدًا تفوقت علينا في هذا الجانب ، ونستأذنها في أن ندعو الله أن يوفّقنا ويمنحنا من العمر والطاقة ما يجعلنا نحاول أن نتأسّى بها . . . إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *